سلسلة
مدرسة الدعاة
فصول هادفة في فقه الدعوة والداعية
(4 / 3)

وجوب تبليغ الدعوة
فضل الدعوة والداعية

عبد الله ناصح علوان
أستاذ الدراسات الإسلامية
بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الحمد للّه رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى دعاة الحق وقادة الخير بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فهذا هو الفصل الثالث ، والفصل الرابع من سلسلة « **مدرسة الدعاة** » وهما بعنوان « **وجوب تبليغ الدعوة** » و « **فضل الدعوة والداعية** » .

أقدمها لكم - إخوتي الدعاة - عسى أن تتفهموا ضخامة مسؤوليتكم ، وعظم واجبكم في حمل الدعوة الإسلامية إلى الدنيا ، ونشر دين اللّه في الأرض ، واللّه يقول الحق ، ويتولى العاملين المخلصين .

المؤلف

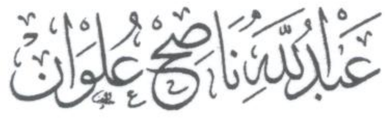

الفصل الثالث

وجوب تبليغ الدعوة

إذا كان هذا - أخي الداعية - هو حال البشرية اليوم من الفساد ، والانحلال والشقاء .. حيث لم تنج - كما علمت - بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادئ الكفر والضلال . إذا علمت هذا فعليك أن تعلم أيضًا ما هي أبعاد مسؤوليتك في الإصلاح والتغيير ، وما هو عظم واجبك في التبليغ والدعوة ؟

وفي هذا الفصل إن شاء اللّه سوف تعلم - أخي الداعية - عظم المسؤولية ، وضخامة الأمانة في حمل الدعوة الإسلامية إلى الدنيا ، ونشر دين اللّه في الأرض ، وعلى اللّه قصد السبيل ، ومنه نستمد العون والتوفيق .

اعلم رحمك اللّه أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت في هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب إلى أمة الإسلام : شيبًا وشبابًا ، رجالًا ونساءً ، صغارًا وكبارًا ، حكامًا ومحكومين ، خاصّة وعامة ... كلٌّ يقوم بهذه المهمّة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحسسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل في هذه الوظيفة الدعوية العامّة قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

والقاعدة في هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله جلّ جلاله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ .. ﴾ [2] .

وعبارة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ .. ﴾ في الآية تشمل المسلمين جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ في الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير إلى اليد الخالقة المدبّرة التي أَخْرَجَتْ أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجًا ، ودفعتها إلى الظهور وإثبات الذات دفعًا لتبلّغ دعوة اللّه في العالمين !! .

---

(1) سورة التوبة الآية : 71 .

(2) سورة آل عمران الآية : 110 .

ولاشك أن هناك نصوص كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة ، تدل دلالة قطعيّة على حتميّة التبليغ ، وفريضة الدعوة نقتطف طاقة منها وباللّه التوفيق :

● **فمن نصوص القرآن الكريم :**

أ – قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] .

فاللام في قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضي الوجوب . و﴿ أُمَّةٌ ﴾ في الآية يقصد منها – كما يدل عليه السياق – طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأي العام في كل بقعة من المجتمع الإسلامي وإن كان ذلك واجبًا – في الأصل – على كل فرد من الأمة ، كلٌّ على حسب طاقته واستعداده وإيمانه .. يقول « ابن كثير » رحمه اللّه في تفسير هذه الآية : (والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة ، كلٌّ بحسبه : كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وفي رواية : « .. وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل .. » [2] .

فالذي تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأي العام ... واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة [3] ، وإن كان ذلك واجبًا في الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب – قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [4] .

أقسم اللّه سبحانه في هذه السورة بالعصر الذي بعث اللّه فيه نبيه ؛ لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكّد : أنَّ جنس الإنسان لفي ضياع وخسران إلا من تحقق :

---

(1) سورة آل عمران الآية : 104 .

(2) ارجع إلى مختصر « ابن كثير » للشيخ الصابوني ج 1 – ص : 306 .

(3) الحسبة : هي القيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وسميت هذه المهمة حسبة ، لكون صاحبها يحتسب الأجر والثواب من اللّه وحده .

(4) سورة العصر .

- بالإيمان باللّه .
- والعمل الصالح .
- والتواصي بالحق .
- والتواصي بالصبر .

فالذي تدل عليه السورة : أن أي إنسان في هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنًا باللّه الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكًا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيًا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرًا على المحنة والبلاء ، راضيًا بما قدر اللّه عليه ؛ فإنه يكون لا محالة خاسرًا ضالًّا ضائعًا !! فالدعوة إلى اللّه إذن من أوجب الواجبات في نظر الإسلام ، بل هي واجبة على كل إنسان بحسبه .

ج - قال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ .. ﴾ [1] ، وقال سبحانه وتعالى في السورة نفسها : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [2] .

ومما يستفاد من النصّين : أن اللّه سبحانه ميّز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

قال القرطبي في تفسيره : « فجعل تعالى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر فرقًا بين المؤمنين والمنافقين ، فدلّ على أن أخص أوصاف المؤمن : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ورأسها : الدعاء إلى الإسلام » [3] . ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر !!.. فهذا التمييز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما يبدو من الآيات - دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالإيمان والخيرية والتبليغ .. فإذا تخلّت عن سمتها وخصيصتها فإنها تتسم بصفات المنافقين ، وتنحدر إلى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ اللّه هذه الأمة منهم .

د - وقال تعالى : ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(1) سورة التوبة الآية : 71 .
(2) سورة التوبة الآية : 67 .
(3) تفسير القرطبي ج 4 - ص : 47 .

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [1] .

وقد سرد الإمام الغزالي هذه الآيات وعقّب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان باللّه واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .. » [2] وقد نزلت هذه الآية كما ذكر - ابن كثير - فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبد اللّه بن سلام ، وأسد بن عبيد - وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم ، وأصبح معنى الآية : لا يستوي من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذمّ والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب اللّه ، ويقيمون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين ..

ومما نستفيده من هذا النص : أن من انتظم في أمة الإسلام عليه أن يعمل على مقتضى المنهج الذي رسمه اللّه لأبناء هذه الأمة ، وأن من مفردات هذا المنهج : تبليغ دعوة اللّه المتمثلة بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر . وأن من قصّر في هذا الحق يكون آثمًا .

هـ - وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ [3] يخبر اللّه سبحانه في هاتين الآيتين أنه لَعَنَ الكافرين من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بسبب عصيانهم للّه ، واعتدائهم على خَلقه ، وكانوا أيضًا لا ينهى أحد منهم أحدًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصي ، ويجلسون معهم ، ويرضون بمنكرهم !! وهذا ما بينه الرسول - صلوات اللّه وسلامه عليه في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم ، فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم ، وشاربوهم ؛ فضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم .. » [4] .

ومما يدل عليه هذا النص القرآني : أن أمة الإسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأي العام ، ولم تنصح الناس إلى ما فيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة اللّه عز وجل ، ولم تأمر

---

(1) سورة آل عمران الآية : 113 - 114 .
(2) إحياء علوم الدين ج 2 - ص : 307 .
(3) سورة المائدة الآية : 78 - 79 .
(4) مسند الإمام أحمد 1 / 391 عن عبد اللّه بن مسعود .

بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر ؛ فإن اللّه سبحانه يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وبسبب تساهلها في حق دعوة اللّه سبحانه ، وحراسة الرأي العام المسلم .

و - قال تعالى : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [1] يؤكد اللّه سبحانه في هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك في اتباع هداه ، وإعزاز دينه ، والجهاد في سبيله . وهؤلاء الذين ينصرون اللّه عز وجل ، لهم في الحياة الدنيا مهمّة ، وفي مجال العمل التبليغي رسالة ؛ فمهمتهم الأولى حين يمكّن اللّه لهم في الأرض أن يعبدوا اللّه ويوحّدوه ، ورسالتهم الأساسية في إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هي مهمتهم ، وتلك هي رسالتهم ، فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ، ويتخلّوا عنها حتى يستأهلوا نصر اللّه عز وجل ، وحتى يزيدهم اللّه في الأرض عزة وقوة وتمكينًا . وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة ؛ فإن اللّه سبحانه يجعل بأسهم بينهم شديدًا ، ويسلط عليهم عدوّهم فيستنفد بعض ما في أيديهم ، ويزيدهم في الحياة ذلة وَوَهْنًا وتمزيقًا .

ومما يوجّه إليه هذا النص القرآني : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسؤوليتها في التزام منهج اللّه عز وجل ، وإذا لم تؤدّ رسالتها في التبليغ والدعوة ؛ فإن اللّه سبحانه يُعرض عنها ، ويتخلّى عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرهم ، ويبدّلها من بعد أمن خوفًا ، ومن بعد عزةٍ ذلًا . وسوف تبقى على هذه الحالة المتردّية حتى تعود إلى هدي ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن اللّه من ينصره . إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التي تدل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض اللّه .

● **ومن نصوص السنّة الشريفة :**

أ - روى الشيخان عن عبادة بن الصامت - رضي اللّه عنه - قال : « بايعنا رسول اللّه ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، وعلى أَثَرَةٍ علينا (أي الإيثار) ، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بَوَاحًا عندكم من اللّه فيه

(1) سورة الحج الآية : 40 - 41 .

برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم) [1] .

ماذا تعني كلمة : « بايعنا .. » ؟ وماذا تعني عبارة : « أن نقول الحق أينما كنّا .. » ؟

أليست تعني أن على كل من انتمى إلى جماعة المسلمين أن يعطي البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع في العسر واليسر ، وأن لا ينشقّ عن أمير الجماعة إلا إذا أمر بالمعصية أو دعا إلى كفر بواح ... ، وأن يقول الحق أينما كان ، وأن لا يخاف في اللّه لومة لائم ..

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين ، ووجوب النصح العام ، وحتمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلّت وَوُجِدَتْ ؟

ب – روى البخاري والترمذي عن النعمان بن بشير – رضي اللّه عنهما – عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل القائم على حدود اللّه ، والواقع فيها كمثل قومٍ استهموا (اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ مَنْ فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا » [2] .

مثّل النبي ﷺ في هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ، ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت في سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تعبث بأمن السفينة وركابها ، فكلُّ مَنْ في السفينة إذا تركوُا هذه الطائفة العابثة تفعل ما تشاء هلك كلُّ مَنْ في السفينة ، وإذا منعُوها ، وأخذوا على يديها نجا كلّ من في السفينة !!.

أليس يدلّ هذا التمثيل النبوي : على أن كل مسلم في هذا الوجود له وظيفة اجتماعية في الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف في وجه المارقين الظالمين .. حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وأنها إذا تساهلت في ذلك أصابها اللّه بالذل والهوان والتمزق ؟

ج – روى أبو داود والترمذي عن عبد اللّه بن مسعود – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق اللّه ودع ما تصنع به فإنه لا يحلّ لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله (أي من المنكر) ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه

(1) البخاري 4 / 154 برقم 7199 ، ومسلم 1470 كتاب الإمارة 1709 .
(2) البخاري 3 / 152 برقم 2493 ، والترمذي 4 / 470 برقم 2173 .

وقعيده ؛ فلما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض » ثم قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ... ﴾ الآية .. [1] ثم قال عليه الصلاة والسلام : « كلا واللّه لتأمُرن بالمعروف ، ولتنهوُنّ عن المنكر ، ولتأخُذنّ على يد الظالم ، ولتأطُرُنّه (لتردنّه) على الحق أطرًا .. » [2] .

هذا الحديث يدلّ دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل فرد في الأمة .

ووجه الاستدلال :

- استحقاق الأمة جميعًا لعنة اللّه إذا تقاعست في واجب التغيير والتبليغ والدعوة ..

- صِيَغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب ، في قوله عليه الصلاة والسلام : « **كلا واللّه لتأمُرنّ بالمعروف** ... » ، فهذه الصِّيَغُ كلها - كما هو معلوم - تدلُّ على الوجوب .

- تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلّي عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وسبق أن شرحنا بعض هذه المعاني فيما استنتجناه من آية : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ... ﴾ [3] في المبحث السابق فارجع إليه .

د - روى الشيخان عن زينب بنت جحش - رضي اللّه عنها - أن النبي ﷺ دخل علينا فَزِعًا يقول : « لا إله إلا اللّه ، ويل للعرب من شرّ إذا اقترب ، فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه » ، وحلّق بين أُصبعيْه : الإبهام والتي تليها ، فقلت : يا رسول اللّه : أنهلِك وفينا الصالحون ، قال : « نعم إذا كثُر الخَبَث » [4] .

مما يدل عليه هذا الحديث : أن الأمة بأسرها : صلحاءها وفجّارها يعمّها الدمار والهلاك ؛ لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ، ومسؤولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فالصالحون منها يشملهم الهلاك ، لكونهم سكتوا عن استشراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذلّ والمهانة !! .

هـ - روى مسلم والترمذي وابن ماجه .. عن أبي سعيد الخدري - رضي اللّه

(1) سورة المائدة الآية : 78 .
(2) أبو داود 4336 ، والترمذي 5 / 252 برقم 3047 .
(3) سورة المائدة الآية : 78 .
(4) البخاري 8 / 113 برقم 7059 ، ومسلم كتاب الفتن رقم 2880 .

عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [1] .

فَمَنْ في قوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رأى منكم منكرًا .. » لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان المنكرُ من العامة أو الخاصة ؛ إذا فقهوا الخطر الذي يترتب عليه تفشّي المنكر في المجتمع الإسلامي .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فإن لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب [2] وذلك أضعف الإيمان .

ووجه الاستدلال الذي يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولًا ، ثم اللسان ثانيًا ، ثم القلب ثالثًا ، فإذا لم يتمّ التغيير بأيّ مرحلة من هذه المراحل الثلاثة .. ، فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدلّ عليه الرواية الثانية التي رواها مسلم : « .. فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » [3] .

إلى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التي تدلّل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض اللّه .

- **الدليل من عمل الأمة :**

انطلاقًا من خصيصة الإسلام الأولى : بكون الدعوة إنسانية عالمية .

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإيمان 49 ، والترمذي 2173 ، وابن ماجه كتاب الفتن برقم 4013 .

(2) وتغيير المنكر بالقلب معناه أن ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ؛ وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم ، وتمعّر وجهه من أفعالهم .

(3) قد يقول قائل : هذه النصوص من القرآن والسنة التي استشهد بها المؤلف على وجوب تبليغ الدعوة خاصة بالاستدلال على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فما وجه الارتباط بينها وبين تبليغ الدعوة ؟

أقول : أجل إن لها كل الارتباط ، وذلك من وجوه :

1 – مضمون تبليغ الدعوة والأمر بالمعروف واحد ، وإن كان هناك اختلاف في اللفظ .

2 – الإرشاد والإصلاح والهداية .. قاسم مشترك بين الدعاة ، والآمرين بالمعروف كما هو معلوم .

3 – في لفظ ﴿ أخرجت ﴾ في قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس .. ﴾ دليل قوي يوضح لهذه الأمة مسؤوليتها في حمل الرسالة إلى الدنيا ، وعالمية الدعوة إلى اللّه هي المستوحاة من الآية ، وهي المستهدفة منها .

واستشعارًا بمسئولية المسلمين في حمل رسالة الإسلام إلى الدنيا .

وإيمانًا باعتقاد المؤمنين جميعًا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد ، أنهم على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

بناء على هذا انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان في مجاهل الأرض ، يمدّنون الأمم ، ويكرمون الإنسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون في العالمين صرح الحضارة ، ويُنبتون الأرض خيرًا وعسلًا ولبنًا ، ويطبعون في ضمير الزمان مبادئ التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة .

انطلقوا يعلنون للدنيا أنهم دعاة حق ، ومصابيح هدى ، وحَمَلة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح ..

وإليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

أ – بعد أن رغّب « المقوقس » حاكم مصر وفد المسلمين بالصلح والمال ، والكفّ عن القتال ، وأنذرهم بالعدد والكثرة والقوة والحرب ... إذا هم لم ينصاعوا لذلك ..!!.

بعد هذا وقف « عبادة بن الصامت » ليقول للمقوقس قولة الحق بشجاعة وإيمان : « يا هذا ، لا تغرّنّ نفسك ولا أصحابك .. أما ما تخوّفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوّفنا به ، ولا بالذي يردنّا عما نحن فيه إذا كان ما قلتم حقًّا !!..

وإنا منكم على إحدى الحسنيين :

– إما أن تعظم لنا غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم .

– وإما غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا .

وإن اللّه عز وجل قال في كتابه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1] .

وما منّا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه اللّه الشهادة ، وألا يردّه إلى بلده ولا إلى أرضه ، ولا إلى أهله وولده ، وقد استودع كل واحد منا ربّه أهله

(1) سورة البقرة الآية : 249 .

وولده . وإنما همنا في سبيل الله ، وإعلاء كلمته .

ثم استطرد « عبادة » قائلًا :

ولا يمكن أن نجيبك إلا بواحدة من ثلاث :

- إما أن تجيبونا إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل اللّه غيره ، وهو دين أنبيائه ورسله . فمن دخل فيه فله ما لنا ، وعليه ما علينا ، وكان أخانا في الإسلام . فإن قبلت أنت وأصحابك سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحلّ أذاكم ، ولا التعرض لكم .

- وإن أبيتم فأدّوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدًا ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم ، وعرض لكم في شيء من أرضكم ودياركم وأموالكم ، وندافع عنكم إذا كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد إلينا ..

- وإن أبيتم الجزية فليس بيننا إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم .

هذا ديننا الذي ندين اللّه تعالى به ، ولا يجوز لنا غيره ، فانظروا لأنفسكم !! .

فقال المقوقس : أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاثة ؟

فرفع عبادة يديه وقال : لا وربّ هذه السماء ، وربّ هذه الأرض ، وربّ كل شيء .. ما لكم عندنا خصلة غير هذا ، فاختاروا لأنفسكم !! » [1] .

ب - (أرسل سعد بن أبي وقاص - رضي اللّه عنه - جماعة من الأشراف دعاة إلى « **يزدجرد** » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرّن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرارة ... فلما وصلوا إليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ما جاء بكم ودعاكم إلى غزونا ، والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنّا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم « النعمان بن مقرّن » فقال :

« إن اللّه رحمنا ، فأرسل لنا رسولًا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على

---

(1) راجع كتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم ص : 59 - 63 .

إجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يَدْعُ قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر أن نبتدئ بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين :

مُكْرَهٍ عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعًا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمر أن نبتدئ بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبّح القبيح ، فإن أبيتم ، فأمْرٌ من الشر هو أهون من آخر شرّ منه : **الجزية** ، فإن أبيتم ؛ فالمناجزة (أي القتال) .

فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب اللّه ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء (أي دفعتم الجزية) قبلنا منكم ومنعناكم (أي دفعنا عنكم) ، وإلا قاتلناكم .. ») [1] .

ج - (.. ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرض القادسية أرسل إلى سعد بن أبي وقاص - رضي اللّه عنه - أن ابعث إلينا رجلًا نكلمه فأرسل إليه ربعيَّ بن عامر ، فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق (السجاد) ، والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل رِبْعيٌّ على فرسه ، وسيفه في خِرقَةٍ ، ورمحه مشدود بعَصَب ، فلما انتهى إلى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقّهما ، وجعل الحبل فيهما ، ثم أقبل يتوكأ على رمحه ، ويقارب خَطْوه حتى أفسد ما مرّ عليه من البسط ، ثم دنا من رستم ، وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لا نقعد على زينتكم .. فقال له رستم : ما جاء بكم ؟

قال ربعي : « اللّه جاء بنا ، وهو ابتعثنا ؛ لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربعي : نعم ، وإن مما سنّ لنا رسول اللّه ﷺ ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث ، فنحن ممتنعون عنكم ثلاثًا ، فانظر في أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

- الإسلام وندعك وأرضك .

---

(1) من كتاب « إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء » محمد الخضري ص : 71 - 72 .

- أو الجزاء (أي الجزيه) فنقبل منك ، ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

- أو المنابذة (أي القتال) في اليوم الرابع إلا أن تبدأنا (أي بقتال) . وأنا كفيل على أصحابي) [1] .

* * *

هذا غيض من فيض مما ذكره التاريخ عن مواقفهم الدعوية المشرفة ، ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم بإحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا في سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ؛ حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الإسلام انتشاره .

فما هو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول ﷺ حتى قامت للمسلمين في عهد **الخلفاء الراشدين** دولة عتيدة وسلطان ، وامتد لهم في رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين فارس والروم ، وامتد ظلهم إلى بلاد السند شرقًا ، وإلى بلاد الخزر وأرمينية وبلاد الروس شمالًا ، ودخلت في عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية إفريقية ، وذلك كله في خمس وثلاثين سنة .

وفي عهد بني أمية : استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقًا ، ودخلوا بلاد الأندس بأوروبة غربًا .

ولكي نعرف عظمة الكيان الإسلامي الكبير في عهد بني العباس فلنستمع إلى ما قاله الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وذلك حين وقف مرة في شرفة قصره ، وقد مرت به سحابة ولم تمطره ، فما وجد غير أن يخاطبها قائلًا : « أمطري حيث شئت فإن خراجك سيُحمل إلينا » .

وهذا القول تصوير صادق لعظمة السيادة السياسية التي بلغتها دولة الخلافة آنذاك .

وإليكم ما قاله قوادنا الأشاوس الأبطال في تصوير الكيان السياسي المرموق الذي وصلت إليه الدولة الإسلامية في عصر العز والشموخ والسيادة :

---

(1) من كتاب « إتمام الوفاء .. » لمحمد الخضري ص : 73 - 74 .

● **هذا عقبة بن نافع** الذي وقف في آخر الغرب على شاطئ المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) ، وقال : - وقد خاض جواده بالماء - « اللهم ربّ محمد لولا هذا البحر لفتحتُ الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك .. اللهم فاشهد !! .. » .

● **وهذا قتيبة الباهلي** الذي توغل في آخر الشرق ، وأبى إلا أن يدخل بلاد الصين ، فقال له أحد أصحابه محذرًا مشفقًا : « لقد أوغلت في بلاد الترك يا قتيبة ، والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر .. » .

فأجابه قتيبة ، والإيمان قد بلغ منه كل مبلغ : « بثقتي بنصر اللّه توغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدّة !! » .

فلما رأى ذلك المحذر عزمه وتصميمه على المضي لإعلاء كلمة اللّه قال له : (**اسلك سبيلك حيث شئت يا قتيبة ، فهذا عزم لا يفلّه إلا اللّه !!**) [1] .

اللّه أكبر نداؤهم ، وسروج الخيل ركابهم ، ومضارب الخيام استقرارهم ، وإبلاغ الدعوة غايتهم ، والجهاد في سبيل اللّه سبيلهم ، والموت من أجل إعلاء كلمة اللّه أسمى أمانيهم .

وما أحسن ما قاله الشاعر في تصوير حالهم ، وتجسيد انطلاقتهم :

في كل فجّ عزمهم سيّار جماعة ليس لهم ديار
سوى ظهور الخيل والغبار إلى الوغى تهافتوا وطاروا

ورحم اللّه شاعر الإسلام محمد إقبال إذ يقول :

بمعابد الإفرنج كان أذاننا قبل الكتائب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها سجداتنا والأرض تقذف نارًا
كنا نقدم للسيوف صدورنا لم نخش يومًا غاشمًا جبارًا
وكأن ظل السيف ظلّ حديقةٍ خضراء تنبت حولها الأزهارا

فلولا أن دعوة الإسلام عالمية ، ومبادئها إنسانية ، وأنظمتها دولية ... لما انطلق الرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان هذه الانطلاقة الكبرى في هداية البشرية ، وتحريرها من الكفر والطغيان ، والأخذ بيدها من وهدة الشقاء ، وحضيض الجهالة إلى قمة السعادة والمجد ، وذروة الحضارة والعرفان !! .

(1) من كتاب « حتى يعلم الشباب » للمؤلف ص : 9 - 10 .

وصدق الله العظيم القائل في محكم التنزيل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

* * *

ومما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التي تقول :

« ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب » .

إن بلاد الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها - كما هو معلوم - يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمّي معاهد ، وما عداهم من مرتدين أو ملحدين أو شيوعيين أو مستعمرين أو صهيونيين ... فلا يصح أن يقرّ لهم في بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لا يتحققون بصفة العزة الإسلامية في دار الإسلام ، وأرض المسلمين ؛ إلا أن يقوموا قومة رجل واحد في التوعية ، وتبليغ الدعوة ، والالتفاف تحت راية واحدة ، والارتباط بالجماعة المسلمة . حتى إذا كوّنوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهيئين لخوض معارك الجهاد ؛ طهّروا أرض الإسلام من كل مرتد أفّاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعي مجرم ، أو يهودي آثم ... عندئذ يعلم أعداء الإسلام في كل مكان أنهم لا حياة لهم في أرض الإسلام إلا بإسلام أو ذمّة !! .

أما أن يكون في المجتمع الإسلامي ملحدون ، ووجوديون ، وإباحيّون مستحلّون لكل حرمة .

أما أن يكون في أرض الإسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالّة تدّعي الإسلام زورًا وتقية كالقرامطة ، والقاديانية ، والإسماعيلية ، وغيرهم ممن على شاكلتهم . أما أن يكون في بلاد الإسلام أحزاب كافرة ، ودعاة إلى مبادئ هدامة كالشيوعية والوجودية والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهي إظهار العزة على الكافرين التي من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا !! .

---

(1) سورة التوبة الآية : 33 .

ومن يوم ما فقدت الشخصية الإسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ؛ تفكك المجتمع الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة (الماسون) في بلاد الإسلام أن يقوّضوا عرش الخلافة الإسلامية ، وأن ينكّسوا راية الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا في أرض الإسلام الفساد ؛ واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الإسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلّة ؛ واستطاع الشيوعيون أن يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وأن يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار .. ؛ واستطاع اللادينيّون أن يتحكموا في أقطار ينتسب أهلها إلى الإسلام ، وأن يبعدوا الإسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ؛ واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع في بلاد الإسلام ، وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ؛ واستطاع اليهود أن يقيموا دولة فلسطين ، وأن يغتصبوا المسجد الأقصى ، وأن يفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ؛ واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير الكثير !! .

وفي الحقيقة لا تُحلّ مشاكل المسلمين في هذا العصر إلا إذا وجد الجيل المؤمن الواعي الداعية المجاهد الذي يحقق بإيمان وشجاعة العزّة للمؤمنين ، والحاكمية للإسلام في كل مجتمع يؤمن أهله بلا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه .

وهذا في الواقع لا يتأتّى إلا أن يستشعر الجيل المسلم في العصر الحديث معنى الواجب الذي كلفهم الشرع به ، ومعنى المسؤولية التي حمّلهم الإسلام إياها . فإقامة حكم اللّه في الأرض هو من أعظم المسؤوليات .

وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات . ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسؤوليته وواجبه ؟ لأنه كما ذكر علماء الأصول : « **ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب** » وإلا فإن الحساب عند اللّه عسير ، وإن المسؤولية يوم القيامة كبيرة .

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [1] .

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [2] .

* * *

(1) سورة الصافات : 24 .

(2) سورة الحجر : 92 - 93 .

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والإكراه ؟

إذا كان الإسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدًا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ؛ وما هو الهدف ؟

إن للجهاد في الإسلام أهدافًا محددة تنبع من صميم الواقع ، وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق ، ونلخصها في النقاط التالية :

1 - **رد الظلم والعدوان عن أرض الإسلام :**

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (1) .

وقال جلّ جلاله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (2) .

وبناء على هذين النصين أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يقاتلهم ويعتدي عليهم ؛ دفاعًا عن النفس ، وانتصارًا للكرامة .

2 - **الإخلال بالعهود والمواثيق :**

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ (3) .

وبناءًا على هذا النص جاز للمسلمين أن يقاتلوا أعداءهم إذا أخلّوا بالعهود التي اصطلحوا عليها ، والمواثيق التي نقضوا عراها .. والبادئ أظلم !! .

3 - **إزالة العقبات التي تعترض الدعوة :**

لقوله سبحانه : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ (4) وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (5) .

---

(1) سورة البقَرة الآية : 190 . (2) سورة الحج الآية : 39 - 40 . (3) سورة التوبة الآية : 12 .
(4) المقصود بالفتنة : الشرك والكفر ، والمعنى : حتى لا يبقى كفر على وجه الأرض ، إما إسلام أو ذمة ، الآية بجملتها تشير إلى عالمية الدعوة . ونسخ الإسلام لكل الأديان .
(5) سورة الأنفال الآية : 39 .

وبناءً على هذا النص يجب قتال مَنْ يعترض طريق الدعوة الإسلامية ، ومن يصد عن سبيل اللّه ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب . بل النص في جملته يأمر المسلمين أن يُزيحوا عن طريق الدعوة من يصدّ عن سبيل اللّه ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب . أو حاكم متأله يحول بين قومه وبين الهداية ؛ حتى تصل دعوة الإسلام إلى الأمم والشعوب نقيّة صافية واضحة ، ثم بالتالي الشعوب هي التي تقرر مصيرها : إن شاءت أن تدخل في الإسلام عن طواعية واختيار ، وإن شاءت أن تبقى على دينها ، وتدفع الجزية إلى الدولة الإسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد في الإسلام : أن الإسلام لم يجبر أحدًا على الدخول فيه ، وأنه لم ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الإسلام ، وإنما شرع الجهاد – كما سبق ذكره – من أجل إزاحة الطواغيت المتألهين الذين يصدون عن سبيل اللّه ، ويمنعون وصول الإسلام إلى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الإسلام لم يكره أحدًا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص :

قال تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [1] .

– لو كان الإسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول اللّه ﷺ الجزية من صاحب « أيلة » ، ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد أن انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك ؛ فإن طبيعة النصر تدفع المرء إلى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن رسول اللّه ﷺ أبى أن يحارب أهل أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم ؛ امتثالًا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [2] .

والجزية التي دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم ، وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم .

وهذا التخيير الذي فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه في الدين .

---

(1) سورة البقرة : 256 .

(2) انظر كتاب « آثار الحرب والسلم » للدكتور وهبة الزحيلي والآية من سورة الأنفال رقم 61 ..

- ومن شواهد التاريخ : (أن السلطان « سليم العثماني » رأى أن « الأروام » و « البلغار » و « الأرمن » قد كثروا في مملكته كثرة مزعجة ، وأقضّوا مضاجع الدولة الإسلامية بفتنهم ومؤامراتهم ؛ فقرر أن يجبرهم على الإسلام أو يخرجهم من مملكته ، فعارض شيخ الإسلام « زنبيلي علي أفندي » معارضة شديدة ، وقال للسلطان بلهجة قوية قاطعة : « ليس لك على اليهود والنصارى إلا الجزية ، وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم » ، فرجع السلطان عن عزمه ؛ امتثالاً لإرادة الشرع) [1] .

- (والتاريخ يسطر بملء الافتخار والإعجاب أن **الإسلام وصل إلى جنوب الهند ، وسيلان ، وجزر لكديف ، ومالاديف في المحيط الهندي ، وإلى التبت ، وإلى سواحل الصين ، وإلى الفلبين ، وجزر أندونيسيا ، وشبه جزيرة الملايو .. ووصل إلى أواسط إفريقية في السنغال ، ونيجيريا ، والصومال ، وتنزانيا ، ومدغشقر ، وزنجبار ، وغيرها من البلاد ...**) [2] .

وصل الإسلام إلى كل هذه الأمم بواسطة تجار مؤمنين ، ودعاة صادقين ، وهداة مخلصين ، أعطوا الصورة الصادقة عن الإسلام في سلوكهم وأمانتهم وصدقهم ووفائهم ، ثم أعقب ذلك الكلمة الطيبة ، والموعظة الحسنة ، والدعوة اللطيفة ؛ فدخل الناس في دين الله أفواجًا ، وآمنوا بالدين الجديد عن إيمان وقناعة ورغبة ، دون ضغط أو إكراه ، ودون قتال أو جهاد ..

والذي أخلص إليه بعد ما تقدم ..

أن دعوة الإسلام انتشرت في العالم إما عن طريق الدعاة ، وإما عن طريق الفتوح .

فما انتشر **عن طريق الدعاة** : كان بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة ..

- وما انتشر **عن طريق الفتوح** : كان بإزاحة الطواغيت المتجبرين ؛ لتصل الدعوة إلى شعوبهم على حقيقتها . والشعوب هي التي تقرر مصيرها ، إن شاءت : أن تدخل في الإسلام ، وإن شاءت أن تدفع الجزية وتبقى على دينها .. ، وأكثر هذه الشعوب التي قُضي على طواغيتها عن طريق الفتوح اعتنقت الإسلام عن إيمان ورغبة بعد أن زال عن كاهلها كابوس الظلم والطغيان . لقد أوردنا من النصوص الشرعية ،

---

(1) ارجع إلى كتاب « آثار الحرب والسلم » للدكتور الزحيلي .
(2) من كتاب « حتى يعلم الشباب » للمؤلف ص : 119 .

والشواهد التاريخية ما يثبت هذه الحقيقة .

فكيف يسوغ لعاقل متجرّد منصف أن يتهم المسلمين بأنهم نشروا دينهم بالإكراه وحدِّ السيف بعد الذي عرفوه من الحق والحقيقة ؟

فبأي حديث بعد هذا يؤمنون ؟

أخي الداعية :

علمت مما سبق أن هناك نصوصًا قطعية ثابتة :

من القرآن الرباني الخالد .

ومن السنة النبوية المطهرة .

ومن عمل الأمة الإسلامية عبر التاريخ .

هذه النصوص تدل دلالة واضحة على حتمية الدعوة ، وفريضة التبليغ .

وعلمت أيضًا ما قاله الأصوليون : (**ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب**)

فهذه القاعدة - كما فهمت - توجب عليك فريضة الدعوة ، وواجب التبليغ ؛ لأن الإصلاح ، والإنقاذ ، والتغيير ، وردّ الأمم إلى الإسلام ؛ لا يتأتى إلا بالانطلاقة الكبرى ، والمسيرة الصادقة ، والعزم الصادق المتين .

وعلمت - كذلك - أن الجهاد شرع في الإسلام لإزاحة الطواغيت الذين يعترضون الدعوة ، ويقفون عقبة كأداء في سبيلها ، عدا عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والقدوة الصالحة . فكل هذه المبادئ طرق ووسائل لانتشار الإسلام في آفاق الأرض ، وأنحاء المعمورة .

إذا علمت كل هذا فبلغ الرسالة ، وأدّ الأمانة ، وانصح الأمة ، وانطلق في أرض اللّه ، فاللّه سبحانه لم يَترِكَ عملك ، ولن يضيع جهدك ، ولن يخيّب مسعاك .

فسوف تصل بإذن اللّه إن انطلقت مخلصًا صادقًا عازمًا إلى أفضل النتائج ، وأطيب الثمرات ، وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

الفصل الرابع
فضل الدعوة والداعية

بعد أن علمت – أخي الداعية – أن في الشريعة الإسلامية نصوصًا قطعية توجب عليك حتمية الدعوة ، وفريضة التبليغ .

فما أراك منفّذًا لما أوجبه اللّه عليك ، وما أسمع عنك إلا منطلقًا بحرارة الإيمان لتبليغ دعوة اللّه في الأرض ، وما أجدك إلا قد شمرت عن ساعد الجد والعمل ، لإنقاذ الشعوب ، وهداية الأمم

ولا شك أنك إذا انطلقت في مجال الدعوة إلى اللّه كما أمر الشرع ، وبلّغت رسالة الإسلام كما أراد اللّه ؛ فاللّه سبحانه يُنزلك منازل الأبرار ، ويرفعك مقام الأخيار ، ويثيبك في الدنيا خيرًا ، ويعظم لك في الآخرة أجرًا ، ويحشرك في مجمع من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا .

وفي هذا الفصل أريد – أخي الداعية – أن أضع بين يديك ما جاء في كتاب اللّه عز وجل ، وما ثبت من حديث رسول اللّه ﷺ في فضل الدعوة والداعية ؛ لتعرف المنزلة الكبيرة التي شرّف اللّه بها الدعاة على غيرهم من البشر ، ولتعلم الدرجة الرفيعة التي ميّز اللّه بها دعوة الإسلام على غيرها من الدعوات .

إذا علمت هذا – أخي الداعية – فيكون انطلاقك في الجهاد الدعوي أبلغ ، وحركيتك في هداية البشرية أكبر . بل تترسّخ حساسية الدعوة في بؤرة شعورك ، وتتعمق حرارة التبليغ في أعماق نفسك ، فما تجد نفسك إلا وقد انطلقت في الحياة مخلصًا صادقًا أمينًا تبلغ دعوة اللّه ، ولا تخشى أحدًا إلا إياه ، بل لا ترقأ لك عين ، ولا يهدأ لك بال حتى ترى أمة الإسلام قد عادت إلى اللّه ، وترى الإنسانية قد نعمت بهداية الإسلام .

ولكن ما الفضائل التي خصّ اللّه بها هذه الدعوة على سائر الدعوات ؟ وما المكارم التي خصّ اللّه بها الدعاة على غيرهم من البشر ؟

أولًا - ما الفضائل التي خصّ الله بها هذه الدعوة ؟

سبق أن ذكرنا في الفصل الأول : « **هذه الدعوة ما طبيعتها ؟** » أن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

1 – أنها خاتمة 2 – أنها عالميه 3 – أنها ذات خصائص

أما أنها خاتمة : فلكونها – كما مرّ – جمعت في طياتها دعوة الرسل جميعًا ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدي المتجدد على مرّ العصور إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية : فلكونها – كما سبق – ذات صبغة إنسانية عامة فى تشريعها ومبادئها ؛ فهي رحمة للعالمين ، وهي هداية للناس كافة ، وهي منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص : فلكونها – كما وضح – تختص بالمزايا التالية :

أ – الربانية : لأنها تنزلت من حكيم حميد .

ب – الشمول : لأنها تنزلت بمنهج الحياة .

ج – التجدد : لكونها تحمل في طبيعتها عوامل نموها وامتدادها إلى يوم الدين .

د – التوازن : لكونها وقفت بين المادة والروح ، وحققت مصلحة الفرد والجماعة ، وأعطت لكل ذي حقّ حقه في الحياة ..

هـ – اليسر : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الإنسان ، وتنسجم مع مسؤولياته ..

و – البساطة : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستجيب لها كل ذي عقل ، وينشرح لها كل ذي فطرة .

ز – الخلود : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لا يتطرق إليها قصور ، ولا يعتريها تحريف ..

تلكم – أخي الداعية – أهم الفضائل والخصائص التي ميزت دعوة الإسلام على غيرها من الدعوات الأخرى سواء أكانت هذه الدعوات ربانية من تنزيل اللّه عز وجل ، أو كانت أرضية من صنع البشر ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ ﴾ ؟ [1] .

وإن دعوة تحمل في طياتها مزايا الربانية ، والعالمية ، والشمول . وتحمل في مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل في طبيعتها ظواهر التوازن ، والأصالة ، والاستمرار ؛ فهي دعوة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتفي

---

(1) سورة البقرة الآية : 138 .

بحاجات الزمن ... إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها .

ومما يؤكد عظمة الدعوة الإسلامية ، ويظهر فضلها على غيرها من الدعوات ، الشهادات التالية :

1 – شهادة الواقع العالمي .

2 – شهادة المؤتمرات الدولية .

3 – شهادة المنصفين من غير المسلمين في العالم .

وسبق أن ذكرنا هذه الشهادات مُدلّلة ومفصّلة في فصل : « هذه الدعوة ما طبيعتها ؟ » فارجع إليه – أخي الداعية – تجد ما يشفي الغليل ، وما يبلّ الصدى إن شاء اللّه .

فهذه الشهادات كلها – كما سبق بيانها – إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على أن دعوة الإسلام انطوت على ثروة قانونية وتشريعية ، وعلى قوة دفع علميّة وحضارية ، وعلى مبادئ مثالية وواقعية ... لا يمكن أن نجدها في أي دين سماوي ، أو قانون أرضي ، أو مذهب اجتماعي ، أو عقيدة إنسانية ... ذلك لأن هذه الدعوة هي من صنع اللّه الذي أتقن كل شيء ، وأحكم كل ما أبدع ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [1] .

فإذا كانت دعوة الإسلام بهذه المنزلة ، وهاتيك الخصائص ؛ فهي جديرة بأن يحملها الدعاة إلى الدنيا يعرِّفون بها ، ويدعون إليها ، وينشرونها في ربوع الأرض . عسى اللّه سبحانه أن يفتح بهم عيونًا عُميًا ، وقلوبًا غُلفًا ، وآذانًا صُمًّا .. وعسى اللّه جل جلاله أن يحقق على أيديهم إنقاذ البشرية من ظلام الشرك ، وبراثن الجاهلية ... إلى نور التوحيد ، ومعالم الحق ، ومنار الإسلام ... وما ذلك على اللّه بعزيز .

* * *

ثانيًا : ما المكارم التي خصّ الله بها الدعاة ؟

لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة في تكريمها للدعاة ، وفي الرفع من منزلتهم ، وفي الإشادة بفضلهم ... لوجدناها أكثر من أن تحصى .

وها نحن أولاء **نقتطف باقة** من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث المصطفى – صلوات

---

(1) سورة المائدة الآية : 50 .

اللّه وسلامه عليه ـ في فضل الدعاة ! ليعلم من يريد أن يعلم كيف كرّم اللّه من يسير في طريق الدعوة إلى اللّه ؟ وكيف أولاهم بالمنزلة ؟ وكيف رفع مقامهم في الدرجات العُلى ؟

1 – **الدعاة هم خير الناس** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. ﴾ [1] .

يقول الداعية الكبير « سيد قطب » رحمه اللّه في كتابه « الظلال » في تفسير هذه الآية : « إن التعبير بكلمة ﴿ أُخْرِجَتْ ﴾ المبني لغير الفاعل تعبير يلفت النظر ، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة التي تُخرج هذه الأمة إخراجًا ، وتدفعها إلى الظهور دفعًا من ظلمات الغيب ، ومن وراء الستار السرمديّ الذي لا يعرف ما وراءه إلا الله .. إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى ، لطيفة الدبيب ، حركة تُخرج على مسرح الوجود أمة ، أمة ذات دور خاص ، لها مقام خاص ، ولها حساب خاص : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. ﴾ .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة الأمم ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها خير أمة ، واللّه يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ، ومن ثمّ لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية ؛ إنما ينبغي أن تعطي هذه الأمم مما لديها : من الاعتقاد الصحيح ، والتصور الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخلق الصحيح ، والعلم الصحيح . فواجبها أن تكون دائمًا في الطليعة ، وفي مركز القيادة .

ومِنْ أول مقتضيات هذا العطاء : أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد ، وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهي خير أمة أخرجت للناس ، لا عن مجاملة أو محاباة ، ولا عن مصادفة أو جزاف .. – تعالى اللّه عن ذلك كله علوًّا كبيرًا – إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر ، وإقامتها على المعروف .

فهو النهوض إذن بتكاليف الأمة الخيِّرة (الداعية) بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما في طريقها من أشواك .. » اهـ .

فالدعاة خُصّوا بالخيرية لهذه المعاني من الأعباء والتكاليف التي ذكرها « سيد قطب » رحمه اللّه في إصلاح البشرية وهدايتها إلى نور التوحيد ، ومعالم الإسلام .

---

(1) سورة آل عمران الآية : 110 .

2 – **الدعاة هم الشهداء على الناس** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [1] .

فأمة الإسلام هي الأمة الداعية الوسَط التي تشهد يوم القيامة على أنها بلّغت الأمم رسالة الإسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصوّرات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة ، في كل ما يتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفي كل ما يرتبط بهداية الأمم والشعوب والإنسانية ، وبهذا يتضح فضل هذه الأمة ، وتتحدد مسؤوليتها ووظيفتها في التبليغ والدعوة والتغيير .

وكانت هذه الأمة وسطًا ، لكونها في أوسط بقاع الأرض ، فهي الأمة التي تتوسط أقطار الدنيا كلها .. فموقعها – كما هو معلوم – وسط بين شرق وغرب ، وشمال وجنوب . وما تزال بموقعها هذا تُشهد الناس جميعًا ، وتَشْهد على الناس جميعًا ، وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة .

وكذلك فهي الأمة الوسَط في الاعتقاد والتصور والمبادئ ، لا تغلو في التجرّد الروحي حتى العزلة والرهبانية ، ولا تنطلق في الحياة المادية انطلاقة البهائم ؛ بل تسير في الحياة على أساس الوسطية والقصد والاعتدال بلا إفراط ولا تفريط .

– وأيضًا فهي الأمة الوسط في **التجربة والمعرفة والأخذ بأسباب الحضارة** .. لا تجمد على ما عندها من علم وتُغلق منافذ التجربة والمعرفة ، ولا تتبع كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصوّرات ومناهج وأصول ، وشعارها الدائم : « **الحقيقة ضالّة المؤمن أنّى وجدها أخذها** » في تثبّت ويقين .

فإذا كانت هذه الأمة شهيدة على الأمم في أداء رسالتها وتبليغها . وقَيّمة على البشرية في إنقاذها وهدايتها ، ومتميزة على الدنيا في تصوّر مبادئها ، وسموّ تشريعها ؛ فهي خليقة بهذه المزايا والخصائص أن تكون خير الأمم ، وأشرف الشعوب على الإطلاق !! .

3 – **الدعاة هم المفلحون في الدنيا والآخرة** : لقوله جل جلاله : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر هي الأمة

---

(1) سورة البقرة الآية : 143 .

(2) سورة آل عمران الآية : 104 .

المفلحة الفائزة في الدنيا والآخرة .

المفلحة في الدنيا ؛ لكونها نفّذت منهج اللّه عز وجل في الدعوة ، والجهاد ، والعمل في سبيل الإسلام ؛ فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم .

والمفلحة في الآخرة لكونها بلّغت في الدنيا الرسالة ، وأدّت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت في اللّه حق جهاده .. ؛ فاستأهلت النعيم الخالد المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وهل تنال أمة في الدنيا من الفلاح والفوز والنجاح والشرف .. ما نالته أمة الإسلام .

فهنيئًا للدعاة الهداة ما أعدّ اللّه لهم من منزلة رفيعة ، ومقام كريم .. في الدنيا والآخرة . وهنيئًا لهم في دنياهم حين يحكمون الدنيا بالإسلام ، وهنيئًا لهم في أخراهم حين يتميزون على سائر الأمم ، وهم في جنات الخلد تحت راية سيد الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليه ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

4 – **الدعاة أحسن الناس حديثًا** : لقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [1] .

مما تدل عليه الآية الكريمة : الدعاة إلى اللّه هم أحسن الناس قولًا ، وأقومهم هديًا ، وأعظمهم منزلة ، وأسعدهم حالًا ؛ ذلك لأنهم لا يخرجون في دعوتهم عن الإطار المرسوم في شريعة اللّه ، ولا يحيدون عن المنهج الذي رسمه الإسلام . بل الدعوة إلى اللّه هي مقصدهم الأسمى ، وهداية البشرية إلى الدين الأقوم هي غايتهم العظمى ، وحمل الرسالة الإسلامية إلى الدنيا هو هدفهم الأكبر ؛ فهم من أجل هذا يواصلون ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم .. حتى يروا في نهاية المطاف أمة الإسلام قد ثابت للحق ، وأبناء الإنسانية قد قبلت هدى اللّه ، وأجناس الأمم قد استجابت للإسلام .

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام ، وليسيروا في طريق الدعوة إلى اللّه ، وليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية ، فإنهم في المقام الأرفع ، والمنزل الأكرم .

5 – **الدعاة ورثة الأنبياء** : لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم ... أن رسول اللّه ﷺ قال : « العلماء ورثة الأنبياء » [2] .

وهل هناك شرف أعظم ممّن يداني الأنبياء في المنزلة والكرامة ؟

---

(1) سورة فصلت : 33 . (2) رواه البيهقي 223 وانظر كنز العمال برقم 28679 والتاريخ الكبير للبخاري 33718 .

وما العلماء والدعاة إلى اللّه عز وجل إلا ممن اقتفوا أثر رسول اللّه ﷺ في دعوة الأمم إلى الخير ، وهداية البشرية إلى الصراط السويّ ، فهم وَرَثَة النبوة ، وهم الواقفون على ثُغْرَة الإسلام ، وهم المجاهدون لإعلاء دين اللّه ، وهم يُحيون بكتاب اللّه الموتى ، ويفتحون بالإسلام قلوبًا غُلْفًا ، وأعينًا عُميًا ، وآذانًا صمًّا ، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الإسلام عن الشهود والوجود .

فهل أدرك الدعاة إلى اللّه فضلهم ، وعرفوا في هذه الحياة منزلتهم ؟

6 – **أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة** : لما روى الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا ... « ... إن اللّه وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحْرها ، والحيتان في البحر .. يصلّون على معلّم الناس الخير » [1] . والصلاة – كما هو معلوم – من اللّه رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء . وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا مَنْ تصدى للدعوة ، وسار في طريق الهداية والإصلاح والتبليغ . ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا في هذا الوجود منزلتهم ؟ فهنيئًا لهم ، ولمن يسير على دربهم ، كم ينالهم من شرف ؟ وكم يسطر لهم في صحائفهم من أجر ومثوبة ؟

7 – **طاعة الدعاة في المرتبة الثالثة** : لقوله جل جلاله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [2] .

قال ابن عباس في إحدى الروايتين عنه ، وجابر بن عبد اللّه ، والحسن البصري ، وأبو العالية ، وعطاء ، والضحاك ، ومجاهد ، وأحمد في إحدى الروايتين عنه :

أولو الأمر : هم العلماء [3] .

فمرتبة العلماء والدعاة في الفضل والمنزلة والطاعة – كما نصت عليها الآية – تأتي بالمرتبة الثالثة بعد طاعة اللّه سبحانه ، وطاعة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام .

وهذه منزلة لا تدانيها أية منزلة في الشرف والكرامة والاعتبار ؟!! .

يقول ابن القيم – رحمه اللّه – في تبيان منزلة العلماء والدعاة [4] : « هم في

---

(1) رواه الترمذي برقم 2685 ، والدر المنثور للسيوطي 5 / 251 .

(2) سورة النساء الآية : 59 . (3) انظر تفسير الطبري ج 6 ص : 149 . (4) إعلام الموقعين ج 1 ص : 9 .

الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يهتدي الحيران في الظلماء ، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب .

وطاعتهم أفرض من طاعة الأمهات والآباء بنصّ الكتاب ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ .. ﴾ » [1] اهـ .

ومعنى هذا – كما قرر ابن القيم – أنهم يحكمون على كل البشر بعد الرسل حتى على الملوك ..

يقول : « أبو الأسود الدؤلي » : « ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك » [2] .

ورحم اللّه من قال :

إن الملوك ليحكمون على الورى وعلى الملوك ليحكم العلماء

هل أدرك العلماء ، ومَنْ في حكمهم من الدعاة والمرشدين ...؟ هل أدركوا فضلهم ، وعرفوا في الحياة منزلتهم ؟

8 – **الدعاة لا تنقطع أجورهم** : لما روى مسلم وأصحاب السنن عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : « من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا » [3] .

لماذا نالوا هذه المنزلة ؟

لما أحدثوا من التغيير في تربية العقول والنفوس ، ولما أفاضوا في الحياة من ينابيع الهداية في إصلاح الأمم والشعوب ، ولما تركوا في تاريخ الإنسانية من أثر طيب خالد في تقويم الاعوجاج والعيوب . ففضلهم ليس قاصرًا على أشخاصهم في تبليغ مبادئ الدعوة ، وإنما تعدى إلى مَنْ كانوا سببًا في إصلاحهم وهدايتهم . فهؤلاء المهتدون ، وهؤلاء السائرون في طريق الصلاح والتقوى إذا كان لهم ثمة أجر ، ومَيزَة فضل . فالذين سيّروهم في هذا الطريق ، وحوّلوهم إلى هذا المصير ، كان لهم من الأجر

(1) سورة النساء : 59 .

(2) من كتاب « الدعوة إلى الإسلام » للمرحوم أحمد البيانوني ص : 73 .

(3) رواه مسلم 4 / 2063 برقم 2674 ، وأبو داود كتاب السنة ب 6 . والترمذي 2674 وغيرهم .

أن أجره عند اللّه أكبر ، وأن كرامته عند الناس أعظم .

لِمَ تميّز الهداة والدعاة بهذا الفضل ؟

تميزوا لكونهم ساروا على بركة اللّه ، وباسم اللّه ، مبلّغين داعين صادقين : فلم يُحجموا عن التبليغ لضرّ أصابهم ، ولم يتقاعسوا عن الدعوة لعقبة اعترضتهم ، ولم يقعدوا عن المثابرة والعمل لمحنة ألمت بهم ؛ وإنما مضوا في طريق الدعوة إلى اللّه صابرين عازمين متفائلين ، حتى يروا في نهاية المطاف راية الإسلام قد ارتفعت على كلّ الرايات ، وجيل الإسلام قد وصل إلى أقدس الغايات ، وكيان المسلمين قد امتدّ في أنحاء المعمورة .

ومعنى هذا أنهم قد أحدثوا في الوجود تبديلًا وتغييرًا ، وأقاموا في أرض اللّه الواسعة كيانات للمجد ، ومنارات للنصر ، وبوارق للعزة ..

فهنيئًا للدعاة الهداة كرامتهم وفضلهم ، وهنيئًا لرجال الدعوة والإصلاح جهادهم وأثرهم .. فإنهم الأحبة الكرام ، والمرموقون العظام .

10 – **الدعاة نجوم السماء في الظلماء** : لما روى الإمام أحمد عن أنس – رضي اللّه عنه – قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضلّ الهداة » [3] ؟

---

(1) حُمْر النّعم : هي الإبل الحمراء ، وكان العرب يتفاخرون بها لعظمها ونفاستها ..

(2) صحيح البخاري 4 / 246 برقم 3701 .

(3) مسند الإمام أحمد 3 / 157 ، ومجمع الزوائد 1 / 121 ، 202 والترغيب والترهيب 1 / 100 .

ما أعظم تشبيه رسول الله ﷺ حين شبه العلماء والدعاة بالنجوم المضيئة في الظلماء !! . وما أدق تعبيره – صلوات اللّه وسلامه عليه – حين جسّد شقاء الأمة وانحرافها بغياب دعاتها ، وفقد علمائها !! .

وما العلماء في الحقيقة إلا منارات هداية وإشعاع للأمم برمّتها ، وما الدعاة في الواقع إلا شموس حياة وعافية للعوالم الإنسانية بأسرها ؛ فإذا غابت الشمس أظلم الكون ، واختلت الحياة ، وإذا طُمست المنارات ضلت السفن وتحيّر الربان !! .

ورحم اللّه الخليفة الراشد عليًا – رضي اللّه عنه – حين قال :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم ولا تبغ به بدلًا الناس موتى وأهل العلم أحياء

فهنيئًا للعلماء الدعاة منزلتهم العالية ، وفضلهم العظيم ؛ لكونهم – كما سبق – نجوم الهدى في سماء الإنسانية ، والمنارات المتلألئة في بحار الظلمات .

* * *

ماذا عليك أخي الداعية ؟

● فإذا كانت دعوة الله – أخي الداعية – تميزت على غيرها من الدعوات على أنها : **خاتمة – وعالمية – وذات خصائص ..**

● وإذا كانت تمتاز على أنها : ربانية ، وشاملة ، ومتجددة ، ومتوازنة ، وميسّرة ، وبسيطة ، وخالدة ، إلى أن يرث الأرض ومن عليها .

● وإذا كان يشهد لعظمتها وحيويتها وخلودها : الواقع العالمي والمؤتمرات الدولية والمنصفون المختصون من غير المسلمين في العالم .

● وإذا كان الدعاة إلى اللّه – أخي الشاب – يتميزون على غيرهم من البشر :

بأنهم خير الناس .
وأنهم الشهداء على الأمم .
وأنهم المفلحون الفائزون فى الدنيا والآخرة .

وأنهم في المنزلة في أعلى المنازل .

وأنهم ورّاث النبوة .

وأن أهل السماء والأرض يستغفرون لهم .

وأن طاعتهم تأتي بعد طاعة اللّه جل جلاله وطاعة الرسول ﷺ .

وأن أجورهم عند اللّه لا تنقطع ولا تنتهي .

وأن أثرهم في هداية البشر خير لهم من الدنيا وما فيها .

وأنهم في الهدى كنجوم السماء في الظلماء .

فإذا كانت دعوة الإسلام بهذا الفضل والعظمة .

وإذا كان الدعاة إلى اللّه بهاتيك المكارم والمنازل .

فما عليك – أخي الداعية – إلا أن تدعو إلى هذه الدعوة العظيمة الخالدة التي شرّف اللّه بها الأمم تكريمًا وتعظيمًا عسى أن يرتبط هؤلاء المدعوّون على اختلاف أجناسهم وألوانهم :

بالإسلام دينًا ودولة ..

وبالقرآن العظيم نظامًا وتشريعًا ..

وبالتاريخ الإسلامي اعتزازًا واقتداءً ..

وبالحضارة الإسلامية روحًا وفكرًا ..

وبالارتباط الحركي للدعوة الإسلامية اندفاعًا وحماسة .

وبهذا تنال أعلى المنازل ، وتصل إلى قمة الفخار ، وتحظى بأعظم المثوبة .

فياليت شباب الإسلام يعلمون ، وياليتهم في طريق الدعوة إلى اللّه يسيرون ، وياليتهم تحسّسوا مسؤوليتهم ؛ ليعرفوا كيف يندفعون وينطلقون ؟ وياليتهم نفذوا أمر اللّه سبحانه القائل : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

* * *

(1) سورة التوبة الآية : 105 .